الوقوف على عتبة "جوهرة التعكر"

امتزاج المعقول باللامعقول شعبياً

"جوهرة التعكر" رواية لـ"همدان زيد دماج"، صادرة عن دار أروقة، 2017، عمل يفاجئ أفق القارئ الجيد، فقد كنت أتوقع أنني سأقرأ رواية تضاف إلى الكم السردي، الذي لا يثير التفاتاً، ولا يدهش متلقياً مثابراً، فتفاجأت بها عملاً يمنياً متفرداً، يخلد حضوره دون ضجيج.

في عتبة الرواية اقتباس لـ"بيرس هاريس"، يشير إلى الذاكرة وصدفة الانتقاء: "الذاكرة طفل يمشي على الشاطئ، لا يمكنك أبداً أن تحزر أي الصدفات الصغيرة سيلتقطها، ويحفظها بين أشيائه الثمينة". هل فعلاً الذاكرة رحلة استعادة مبنية على صدفة التقاط التفاصيل الصغيرة؟ أم أن الذاكرة فيها قصدية الانتقاء والاختيار؟

ظني أن الذاكرة ليست عفوية. بما في ذلك هذه الرواية اليمنية بامتياز، وهي تلملم الحكايات لوطن يعاني في أيامنا تفكك أجزائه، وأناس لم تعد الدار الكبيرة تجمعهم.

اختفاء العادات الجميلة، وبساطة الأيام، والمرح الذي حل محله قتامة بليدة "على الحقول الزراعية التي هُجِر بعضها،

وبنيت في بعضها منازل قبيحة... على بهجة الرقص الجماعي أيام الأعياد بعدما اكتفى أبناء كل قرية بالصلاة في قراهم، ولم يعودوا يجتمعون في المصلى الكبير أسفل الشلال... على نقاء المروج والآكام والطرقات التي أصبحت مكسوة بكل ما خلق الله من أوساخ... على موت المواويل الزراعية التي كانت تردد صداها الجبال... على الأمطار التي شحت، على مبنى "الولي" الذي تهدمت أجزاء من قبته البيضاء... على نساء القرية وقد اختفت البهجة من حياتهن، مثلما اختفت وجههن وراء النقاب..." (ص263).

في تنويه استدراكي يقول المؤلف في مفتتح الرواية: "كل الشخصيات الحقيقية والأحداث الواقعية في هذه الرواية من نسج الخيال". هنا تصبح الحقيقة ملتبسة بالخيال، والخيال تمظهراً من تمظهرات الحقيقة والأحداث الواقعية، في مزج وتداخل وإزالة لحاجز الواقعي والأسطوري، المحسوس والمرئي والطلاسم واللامرئيات.

وهل الخيال سوى امتصاص ومحاكاة ومشابهة وظلال تتولد من عالم الحقيقة ومولِّدة له في آن.

إنها الأماكن والأزمنة، الأحداث والأشخاص، التي يجازف السارد في الغوص فيها "الأماكن التي تختبئ والأزمنة في كهوف معطف شتوي مبتل، يتدثر فيه الماضي، وتتوارى في ثناياه الحكايات والتفاصيل..." (ص9).

من الكهانة والنبوة الرائية للمستقبل يكون الولوج إلى كهف وثنايا معطف الذاكرة، الذاكرة بما هي فعل ممارسة للحرية والحياة في آن، في تماثلها مع احتراق السيجار "التدخين حياة الأحرار يا مغفل!..."، والغفلة نقيض الذاكرة، والتدخين فعل اشتعال وإيقاد لها.

سرد متنبه بذاكرة تصويرية تلتقط التفاصيل ناسجة حكاية وتاريخاً للأشخاص والأمكنة، للتاريخ والحاضر.

"جوهرة التعكر" رواية تغوص في تفاصيل الذاكرة الفردية والجمعية، لتعيد تخليقها حيوات تتحول فيها الأطياف والقصص الشعبية إلى تفاصيل ملموسة ومرئية ومسموعة.

ما أكتبه ليس قراءة نقدية لـ"جوهرة التعكر"، وإنما مجرد وقوف على عتبتها، متأملاً في صدفاتها التي تحتاج إلى قرب أكثر، إنها ظلال قراءة ومشاهدة لما ولدته من عوالم ممزوجة بالأرض، جبلاً وحصناً وعين ماء تتدفق بالحياة، وتاريخاً يمتطي فرس المفضل بن أبي البركات متجهاً صوب جهات اليمن.

يخيط الروائي شخصياته والأحداث باقتدار وصبر ودقة، لا يترك للشرود السردي الذي يقع فيه الكثيرون، فسحة. صبر سارد متمكن وغير عجول، يعطي للتفاصيل مجالها وأفقها، مازجاً إياها ببعض الحكايات والأحداث، في تداخل للأطر السردية التي يحتويها إطار كلي هو "جوهرة التعكر"، وكأن الحكي بكل آفاقه هو الحياة التي تنتقل في جينات السارد

الخارجي، من أبيه صاحب "الرهينة" و"طاهش الحوبان" و"العقرب" و"الأحمدية" و"المدفع الأصفر" و"الانبهار والدهشة" زيد مطيع دماج. تواصل وتمايز بين الأب والابن، في أسلوب الحكي وبناء الشخصيات، ووحدة السارد الإنساني في خلقه الحميمي لشخصياته وتناولاته للأحداث.

اتفاق الروح السردية ذات العبق الإنساني، واختلاف في بؤرة الخطاب السردي، فالأب زيد مطيع دماج جاء تعبيراً عن زمن تنويري، اهتماماته الأساسية تركز على انعتاق الإنسان، ونضاله السياسي، لذا كان السرد لديه نضالياً بامتياز، مع تأسيس متميز في القصة القصيرة، نراها خلاقة بدرجة رئيسية في "طاهش الحوبان" ثم في "العقرب"، وذات خطاب سياسي تحريضي تحرري في "الرهينة" و"المدرسة الأحمدية" و"المدفع الأصفر" و"الانبهار والدهشة".

لكن الابن تعبير عن زمن مختلف في تراكماته المعرفية والسياسية، لذا تأتي السياسة في أحداثها كنتف وجزئيات في النسيج الكلي للرواية كعمل حياتي متكامل في نصه وخطابه. فنجد خطاب الرواية أكثر تورياً خلف جماليات النص في "جوهرة التعكر".

ولعل التضفير السردي لتفاصيل هذا العمل هو الذي يترك أثره لدى المتلقي بانبهار واستمتاع دون نتوءات.

شخصيات الرواية تشمل الشيخ "العارض" والعاقل "العمدة" والفلاح "السُّلَيَّان" والنجار والطحان، الخ.

"العمدة" ناظم رئيسي لحركة السرد وخطاب الرواية النقدي، كموقف ساخر من اهتراء الواقع السياسي:

"أنت اشتراكي يا عمدة... أكيد!

يهز العمدة رأسه نافياً، ويضيف، مكشراً:

- كلا... الاشتراكيون، ملاعين...! كذابون... لا فائدة منهم أبداً... خِرق مبتلة... صدقوني!...

يضحكون... ولكي لا تفوت هذه الفرصة الثمينة لسماع رأي العمدة في البقية يصرخ أحدهم:

- يا جماعة العمدة مؤتمر... رجل دولة... مش أي كلام!...

- كلا... كلا... أصحاب المؤتمر ملاعين...! سَرَق!... يعني لصوص!... عليك أن تحترس منهم دائماً... يستطيعون أن يلتقطوا اللقمة من فمك بسرعة البرق!...

- إصلاحي إذن؟!... أخيراً يا عمدة رجعت إلى جادة الصواب!...

- إلى جا... ماذا؟ المطاوعة ملاعين...! خنازير... يعني نجاسة على نجاسة... يحقدون عليك وأنت جثة هامدة... صدقوني!...

يقهقه الجميع وقد تناسوا خلافاتهم، ثم يسترسل أحدهم ضاحكاً:

- العمدة من حزب الخُضر... صديق البيئة...!

حينها يشعر العمدة بالضجر، كأنما لم يعجبه الأداء المسرحي الذي أصبح دون المستوى، فينهض قائلاً باستهزاء وخبث صادم، وقد رسم بأصابع يده النحيلة إشارة قبيحة في وجه صاحب الصوت:

- صديق أمك يا ملعون!..." (ص137).

حكايات العمدة والشيخ العارض وكريم والسُّلَيَّان، وحمزة الماسر والشرجبي، والكاهن سطيح التعكر، والمفضل بن أبي البركات، والفقيه سعيد الحرازي، والملكة أروى، وأمي حليمة كُرامة وريحانة، والعالم السويدي فورسكال، ومصلح سعيد، والأميرة الرسولية الدار النجمي، وأمي تقية، وسليم، وعلي ناجي... الموروث الشعبي وحياة الفلاحين وعاداتهم ومواسمهم وأساطيرهم، ومنازعاتهم... الخ.

"جوهرة التعكر" من تلك الأعمال التي تحفر ذاتها السردية في الذاكرة اليمنية، كواحدة من العلامات السردية الفارقة.

يحضر الواقعي واللامعقول، عالم الأشباح والأرواح وواقعية العمدة الساخرة من اللامعقول، بامتزاج في بوتقة القرية وحياة الفلاحين... دون أن يكون عالم اللامعقول

ناتئاً، بل هو جزء أصيل من الحياة الواقعية والمعاشة في الأرياف.

التعايش السلمي والحميمي بين الطبقات الاجتماعية المتعددة حتى سبعينيات القرن العشرين، وانعدام الحدود بين الواقعي واللامعقول، بين التاريخ والحاضر المعاش... مع ثمانينيات القرن العشرين وما بعده "الناس تباعدوا عن بعضهم، والأسرة الكبيرة التي كانوا يعيشون في كنفها في القرية صارت أسراً صغيرة متناحرة.

حتى حين يجتمعون للصلاة في جامع القرية كانوا متفرقين..." (ص262).

بين الواقعي والخارق الأسطوري اللامعقول لعالم الأشباح والأرواح المتواصلة عبر الزمن، تزول الحدود، في تجسيد للواقعية الشعبية للريف اليمني... من سطيح التعكر ورسومه في كهوف جبل التعكر وطلاسمه التي أعطاها لهند بنت عتبة، وحسمها لطهارتها، ونبوءته لملك بني أمية، واللفافة الجلدية التي أعطاها بما تحتويه من أسرار سرمدية، والتي ظلت تنتقل عبر الزمن إلى الولي محمد والفقيه سعيد الحرازي والبناء اليهودي، والمفضل بن أبي البركات، والملكة أروى إلى فورسكال والدكتورة مارتا... الخ. إزالة الحاجز بين الواقعي والخارق، العلم والخرافة، الكشف الذي يعني الموت "فبصرك اليوم حديد"، معرفة أسرار تلك النقوش، تعددت وتكررت التفاصيل لتبقى كلية الحكايات

والأساطير في قعر المجتمع... تعاقب أفراد الشيخ العارض في حفظ المخطوطات الخارقة في دار البخور، ونهايتهم المأساوية مع كل بوح وكشف ورؤية!

يقابل ذلك اغتيال السياسي كلما كشف المحظور والمسكوت عنه، وعلى صوته الصادح بالحرية والتعايش.

التزامن في حيز المكان:

قرى "جبل التعكر" الحيز المكاني كبؤرة رابطة للأحداث، وتعدد الزمان، فالسارد الخارجي يسعى من خلال هذه المجاورة الزمنية والبصرية للأحداث، ليؤكد أن الحاضر هو الميدان الحقيقي لهذه التجربة الروائية الفذة. هذا التضفير بين حكاية كريم وجار الله عمر، وفورسكال والدكتورة مارتا في مستشفى جبلة، بين سطيح والولي محمد والشيخ العارض، والملكة أروى، والفقيه سعيد الحرازي، وعلي السعواني... الخ، ميدانها الحقيقي هو الحاضر. السارد الخارجي جعل الفعل الروائي يحدث في سلسلة من الأزمنة المتعددة في المكان اليمني، الذي تبدأ بؤرته في جبل التعكر، لتحلق منه نحو التهايم وجبلة، مدينة تعز وعدن، ومكة والحديدة وصنعاء، ويريم... الخ. هذا الانتقال الواعي المتجاور للأزمنة، والرابط عضوياً للمكان اليمني المتعدد، الذي يخلط بين هنا وهناك المكاني والزماني، يتحدى التشتيت البصري والسردي، راسماً خارطته من أصدافه

المنتقاة، وإن زعم أنها تجاذبت عن طريق الصدفة غير الواعية.

استعادة الأزمنة من الماضي البعيد والمتوسط والقريب إلى الحاضر تخلق شعوراً بعضوية المكان الوحدوي، حين تشاهده من أعلى جبل التعكر، برؤية كلية جامعة وممعنة في استيعاب الجزئيات والمكونات التاريخية والجغرافية، لكأن الوطن الوحدوي اليمني مكثف في تلك اللفافة الجلدية التي أعطاها سطيح التعكر إلى هند بنت عتبة، وتوارث سرها المكنون أزمنة وأشخاصاً وأحداثاً توزعوا على قرى سفح جبل التعكر.

هناك حشد لفضاءات زمنية تربطها رسومات كهف جبل التعكر وقبة السماء، والفضاء المكاني لليمن، وأحداثها التاريخية الممتدة من الماضي، والمتجمعة في "بركة التعكر"، أي في الحاضر المتدفق نحو المستقبل.

"جوهرة التعكر"

المكان يقين الرؤية وسطوة الأسطورة

المكان في رواية "جوهرة التعكر" يثير إحساساً بالانتماء المتجذر في التاريخ، والمتحرك في الحاضر والصانع للمستقبل، وهو إحساس بالزمن كتجلٍّ من تجليات المكان وتمظهراته الجمالية.

المكان كامتصاص للأحداث والنبوءات ولعنة الكشف للمستور. بدون المكان لا أحداث، فهو الحامل للتاريخ اليمني، بطموحات حكامه ومُعاناة محكوميه، سلطة السيف والكتاب في آن، المعرفة والقوة.

بواقعه ورموزه، وقراه ومدنه، المكان، جبل التعكر وجوهرته التي تتدفق حياة وقرى على امتداد سفحه، سيرورة التاريخ وديمومة المكان. المكان الذي نتخيله بمنظوراته السحرية أو نعيش قسوة وقائعه.

في هذه الرواية "جوهرة التعكر" لمؤلفها همدان دماج، والصادرة بطبعتها الأولى عن دار أروقة، عام 2017، نجد المكان ميداناً للأسطورة/ النبوءة الإطار، ذات شقين، أحدهما يتعلق بنبوءة سطيح السبئي/ سطيح التعكر بحتمية الغزو: "اعلم أنه لتهبطن أرضكم الحبش، وليملكن ما بين أبين وجرش"، وهي النبوءة العابرة للأزمنة، وزمانية متلقيها، فهي تتحقق كلما وَهَن المكان بتناقضات الداخل،

فتخرب الأسواق والسدود، وتتحول المدرجات الزراعية إلى أرض يباب، أو صخور عارية من تربتها، والسواحل والوديان إلى مرتع لقراصنة الاستعمار!

والمقولة النبوئية الثانية لسطيح السبئي/ سطيح التعكر، تتعلق بانتقال مركز العمران والملك من اليمن إلى الحجاز، حين حسم أمر عفة "هند بنت عتبة" عند لجوئها وأبيها إليه، ليقول قوله الفصل ببراءتها من تهمة زوجها "الفاكه بن المغيرة" لها بالزنا. وهند هي من قالت للنبي محمد حين طلب منها ومن نساء قريش بعد الفتح أن يبايعنه على ألا يزنين ولا يسرقن ولا يقتلن أولادهن، فقالت له: وهل تزني الحرة أو تسرق!

هنا يصبح شرط الملك العفة التي شهد بها سطيح لهند، وعبرت عنها باستفهامها الاستنكاري والنافي: "وهل تزني الحرة أو تسرق!".

لم يكتفِ سطيح، الكاهن السبئي التعكري، بأن يشهد لهند بالعفة، وإنما تنبأ لها بأن تكون حاملاً بيولوجياً لمُلْك العرب ودولتهم المرتجاة، تلك التي كان وقع حوافرها كأمل ينتظر نبياً وكتاباً.

وكأن نبوءة سطيح الكاهن السبئي/ التعكري و"لفافته" التي سلمها لـ"هند"، كان تمهيداً أو بشارة، ترى مُلْك العرب مقترناً بموجهات النبوة، كونها جامع الملك واكتمال الدين: "اليوم أكملت لكم دينكم... ورضيت لكم الإسلام ديناً".

المكان في هذه الرواية، هو رحلة وكشف لثقافة المكان وأسراره، والعلاقة مع المكان ليست علاقة انتماء لإرث وتاريخ فحسب، وإنما إعادة تخليق للمكان وتوليد للأحداث.

هناك مخيلة واسعة ولغة وصفية نشيطة في هذه الرواية، وتداخل بين الواقع والرمز والأسطورة.

لن نجد في هذه الرواية شخصيات ذات توجه أيديولوجي بشكل حاد وواضح، وكأن المكان هو الأيديولوجية المحورية والواضحة لهذه الرواية. ولماذا أقول "وكأنَّ"، بل إن أيديولوجية هذه الرواية هي المكان بتحولاته الجمالية ووقائعه السياسية وأحداثه الطبيعية، أو بحسب مفهوم المكان لدى غاستون باشلار في كتابه "جماليات المكان"، ترجمة: "غالب هلسا"، والذي يشمل العلاقات الحسية التي تربط الإنسان بواقعه، فهو مجسد أصيل لماضي الشخصية من خلال الذاكرة التي تجد صداها الحقيقي في مدركات مادية، كالغابة وبيت الطفولة وملاعب الصبا، هو في الوقت نفسه مترجم لأحلام الإنسان وأمنياته المقبلة.

وهو ما نجده في رواية "جوهرة التعكر" يتمثل بحصن التعكر ومائه وقرية المجمرة ودار البخور... الخ. من هنا يصبح تاريخ حصن التعكر ومدافن الحبوب فيه وقراه ودوره وجوهرة مائه... الخ، هو نداء ودفاع عن وحدة اليمن، وبحسب باشلار: نداء من أجل إدامة الحياة. ولهذا فإن السارد الخارجي وهو يتحدث عن جبل التعكر، يراه

جغرافياً موازياً في قمته وارتفاعه لـ"جبل صبر" في تعز. فجبل التعكر يطل على الطريق المؤدية إلى تعز وعدن وصنعاء.

إنها رواية/ نداء من أجل ديمومة الحياة الوحدوية. فعتبة الرواية التي اقتبسها السارد في بداية الرواية، عن سطيح التعكر، لم تكن تخبرنا اعتباطاً بغزو الأحباش كلما وهن المكان، وإنما كانت تقول لنا إن الخراب والغزاة إذا حلوا باليمن، فإن سائر الجسد اليمن سيعاني من ذلك، فلا فرق بين "أبين" في الجنوب و"جرش" في منطقة عسير شمالاً، في الحال والمآل!

المكان هو أيديولوجية هذه الرواية، ولهذا نجد شخصياتها ليست ذات أيديولوجية عقائدية، بل هي غير واضحة في أيديولوجيتها، وهو ما نجده جلياً في شخصية "العمدة" "النقيب محمد بن حمود قائد"، ففي أيام الانتخابات يتجمع حوله الشباب بعد خروجهم من المسجد ممازحين له، فقد "كان العمدة يغير من انتمائه السياسي والحزبي بمزاجية وبسرعة، كما يغير تبغ "مداعته"، وجد شباب القرية في هذه المسألة موضوعاً جديداً للتندر... كانوا يجلسون حوله، وقد أشعل سيجارة، ويبدؤون ممازحته:

- أنت اشتراكي يا عمدة... أكيد!...

يهز العمدة رأسه نافياً، ويضيف، مكشراً:

- كلا... الاشتراكيون ملاعين...! كذابون... لا فائدة منهم أبداً... خِرَقٌ مبتلة... صدقوني!...

يضحكون. ولكي لا تفوت هذه الفرصة الثمينة لسماع رأي العمدة في البقية، يصرخ أحدهم:

يا جماعة العمدة من المؤتمر... رجل دولة... مش أي كلام...

يهز العمدة رأسه نافياً مرة أخرى، ويضيف وقد رفع حاجبيه مستنكراً:

- كلا... كلا... أصحاب المؤتمر ملاعين... سرق!... يعني لصوص!... عليك أن تحترس منهم دائماً... يستطيعون أن يلتقطوا اللقمة من فمك بسرعة البرق!...

- إصلاحي إذن؟!... أخيراً يا عمدة رجعت إلى جادة الصواب!...

- إلى جا... ماذا؟ المطاوعة ملاعين... خنازير... يعني نجاسة على نجاسة... يحقدون عليك وأنت جثة هامدة صدقوني!..." (ص136-137).

المكان الخاص هو الحياة، بحسب باشلار، وهو بحسب الرواية "حصن التعكر" الذي تتسع جغرافيته إلى ما يطل عليه من أفق ومدى، فحصن التعكر يطل من ارتفاع ثلاثة

آلاف متر فوق سطح البحر، على شرايين طرق البريد والقوافل المسافرة شمالاً إلى صنعاء وجنوباً إلى تعز وعدن.

حصن التعكر تكثيف مكاني لليمن الواحد بأفقه، والممتد رأسياً في أعماق التاريخ.

إن رمزية الكاهن سطيح السبئي/ التعكري الذي عاش طويلاً، تمثل أزمنة المكان، والقدرة على تشكيله وتخليقه مرات عديدة، تاركاً آثار كفيه وأقدامه مطبوعة على صخوره، سطيح ذاكرة المكان ومستشرف الأحوال والأحداث والأزمان التي ستمر به، يرى بأم بصيرته الأحباش في قادم العقود وهم "يقعون" بأرض تهامة ويملكون ما بين "أبين وجرش"، ثم يلفظهم المكان في عهد سيف بن ذي يزن، وصولاً إلى الوحي المحمدي، الذي رآه أبو سفيان مُلْكاً، وحين استدرك عليه العباس قائلاً له إنه الدين، فقال نعم! وكأن الملك لا تستقيم مداميكه إلاَّ بالدين، وهنا أهمية استدراك العباس بن عبدالمطلب وسرعة استجابة أبي سفيان لهذا التصحيح الاستدراكي!

هي نبوءة سطيح السبئي/ التعكري لربيعة بن نصر، أحد ملوك التبابعة، حين فسر له رؤياه التي هالته وأقلقته، فقال لسطيح: "رأيت حممة خرجتْ من ظلمة، فوقعت بأرض تهمة، فأكلت منها كل ذات جمجمة"، فكان تأويل سطيح لهذه الرؤيا قوله للملك: "اعلم أنه لتهبطن أرضكم الحبش، وليملكن ما بين أبين إلى جرش، وهو بعد الملك بحين، أكثر

من ستين أو سبعين من السنين، ثم ينقطع ملكهم ويُقتلون ويُخرجون... يكون ذلك على يد إرم بن ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحداً منهم في بلاد اليمن، ثم ينقطع سلطانه على يد نبي ذكي، يأتيه الوحي من العلي القدير" (ص31).

رمزية سطيح قادرة على تطويع المكان وعجنه وتشكيله والتنبؤ بالأحداث والأحوال، وتوجيه الرياح وتحريك السحب الممطرة. إنه علم اليقين، الذي يحج الناس إليه لمعرفة ما التبس عليهم. تكثيف رمزي وتركيب أسطوري لليمن، المكان والمعمار والمركز الحضاري المضيء في الجزيرة العربية، المتموضع خلف الحاجز الصحراوي (الحجاز) الذي يفصله عن الشام، ويمثل البحر الأحمر له شريان التواصل مع مصر والهند، الذي تنتقل عبره التوابل واللبان وغيرها من المنتجات.

كانت اليمن قبلة "الحجاز" و"نجد"، كلما ضاقت بهم الرؤية والمعيشة وجهوا وجوههم قِبَل اليمن، ليعودوا محملين بجلاء البصيرة وقوافل الشتاء المحملة بالمعيشة والثراء.

لقد كانت هند بنت عتبة في رحلاتها إلى اليمن تعود بيقينها من خلال نبوءة سطيح لها بملك الأرض، وكذلك تعود محملة بتجارتها التي اشتهرت بها، كونها من نساء قريش اللواتي عملن بالتجارة قبل الإسلام وبعده.

تناولت هند بنت عتبة "لفافة" المعرفة التي لا تبوح لمكنونها قبل الأوان، فتظل مصونة رموزاً وطلاسم، وكذلك مستبشرة بنبوءة واضحة جلية "إنما أنت امرأة ذات شأن، ولسوف يأتي من نسلك ملوك عظام يقيمون الدنيا ولا يقعدونها" (ص35).

هو توازٍ للمكان والملك الصليحي، بين جبلين: جبل التعكر وجبل صبر، وبينهما معول الفلاح و"أتلام" وشيجة تجري فيها ينابيع الحياة، جواهر هابطة من على جبلين.

ليس غريباً أن يكون حصن التعكر مقراً للملكة أروى في الصيف، وأن يكون لها في سفح جبل صبر "بركة أحمر" ومسجد "الحمراء" أو "مسجد أحمر"، في دلالة على صفتها التي عُرِفتْ بها "الحمراء"، والبركة والمسجد يقعان في الجهة الشمالية لجبل صبر، في قرية "ثُعَبَات" أو "ثَعَبَات"، والتي عرفت في ما بعد في عهد الدولة الرسولية بـ"مدينة الملوك"، لاتخاذها سكناً لملوك بني رسول.

فجبل صبر بقمته الشمالية كلما زالت الغمة تماهى مع قمة جبل التعكر، تماهٍ لبصر وبصيرة ومُلْك عماده الدولة الفاطمية ثم الرسولية ثم الطاهرية... وحصن التعكر الذي يشرف على شريان الاتصال واللحمة بين تعز وعدن وصنعاء، شاهد بصر ورؤيا، وليس من رأى كمن سمع، وكلاهما الجبلان يطلان من حيث الرؤية على أفق اليمن ووطنيته.

بانتقال "لفافة" سطيح السبئي/ التعكري، من هند بنت عتبة إلى الملكة أروى بنت أحمد الصليحي، حازت القدرة على تطويع الملوك والسلاطين والمكان، وتسيير الرياح. وكما ترك سطيح آثار قدميه وكفيه على حصن التعكر، تركت الملكة أروى آثارها في جبل التعكر وجِبْلَة وجبل صبر، وفي العديد من أمكنة اليمن شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً... وفي تلك الأمكنة سنجد لغة لفافتها من خلال أثرها، مساجد وسماسر وسدوداً وبرك مياه تتدفق بالحياة الدائمة، وأوقافاً ظلت تحمل اسم "أوقاف الحرة سيدة"، وبصيرة علم لا يعرفها سوى خواص الخواص.

فالملكة الحرة سيدة (أروى) بنت أحمد الصليحي وصلت في سلم دعاة الإسماعيليين إلى مرتبة "حجة الإمام"، أي أعلى درجة بعد درجة داعي الدعاة، فالإسماعيلية لا تلتفت إلى الأشكال الجسمانية للرجل والمرأة، فذلك لا يعني شيئاً، "بل تنظر إلى ما يظهر عن هذه الأشكال الجسمانية من الأفعال الخيرة والأعمال الصالحة" (الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري، الدكتور محمد رضا حسن الدجيلي، 1405-1985، منشورات الخليج العربي بجامعة البصرة، ص46).

انتقال "اللفافة" من سطيح إلى هند إلى الملكة أروى، الحجة بعلم الباطن، كان سر ملكها بما ورثته من علوم الأوائل وصولاً إلى علوم زمانها، مما سهل لها القضاء على خصومها ومنافسيها بضرب بعضهم ببعض، ولو كان بقرب

"المفضل بن أبي البركات" الذي أراد أن ينازعها المُلْك، وانتزع منها حصن التعكر، ثم وجدوه جثة هامدة في "مدفن جهنم"، "أكبر مدافن الحبوب الصخرية المنحوتة منذ القدم التابعة للحصن، وأكثرها اتساعاً وجمالاً، بعد أن انزوى فيه صامتاً بجانب خزينة صخرية فارغة منحوتة في جدار المدفن، وقد غشيه ألم الخديعة وهذيان الخيبة والألم" (ص45). ليصير "شبح ابن أبي البركات" طلسماً من طلاسم ورموز وحكايات حصن التعكر: "عندما كان العمدة يُسْأل بإلحاح عن شبح "ابن أبي البركات"، كان يرد ساخراً:

- لا وجود للأشباح، ولا حتى للجن، إلاَّ في رؤوسكم!..." (ص47).

عديدة هي الرموز التي تتكرر في العديد من الأمكنة اليمنية، سواء مقامات لأولياء صالحين أو شخصيات أسطورية، أو من الجان، فحكاية الولي "مُحُمّد" أو "حُمّد" نجدها في جبل التعكر وفي تعز في الجهة الغربية من "جبل القاهر"، لديه مكان منحوت في ضاحة الجبل بعمق يكفي لقليل من الزوار ربما ثلاثة أشخاص، والعلاقة بين الجن والضاحة في الجبال متلازمة. وقد عُرِف باسم "الشيخ محمد" أو "حُمَّد"، بحسب نطق أبناء المدينة القديمة، وقد كانت النساء والأطفال يضعون فيه الشموع والعطور والناد، وعُرِف كذلك بصفة "شيخ الجن"، لكنه في جبل التعكر اسمه "الحاج محمد"، وهو ولي من الأنقياء يسكن قرية "ذي قلسن" التي اندثرت منذ زمن بعيد، وهي قرية غير بعيدة عن قرية "ذي

المجمرة" التي لم تكن قد بُنيت بعد. ومن حكاية هذا الولي يبدأ تدفق "جوهرة التعكر"، وهي جوهرة حمراء أعطاها النبي محمد للحاج محمد، حين التقاه في الحج، وعند عودته فتح هدية النبي قبل الموعد المحدد له، فكان أن غشي عليه وسقطت "الجوهرة من بين يديه متدحرجة إلى أسفل أحد مجاري السيول. وبعد ساعات مرَّ بعض الرعاة من ذلك المكان، ولم يصدقوا ما شاهدته أعينهم... كان شيخاً مسناً مرمياً على الأرض مغشيا عليه تحت أقدام بغلة متهالكة، لا تحمل فوق ظهرها أي شيء، وعلى مسافة غير بعيدة كانت المياه تخرج صافية غزيرة من عين ماء لم يروها من قبل" (ص54).

ومن يومها أصبح "الولي محمد" مزاراً لطلاب البركة والشفاء "ومازال بعض الأهالي، وخاصة النساء يداومون على زيارته حتى اليوم، موقدين البخور وعيدان الند..." (ص54).

واحدية المكان في تنوعه وحركة إنسانه:

تتداخل الأمكنة بتنقلات دائبة للإنسان على الأرض اليمنية، فسالم جد "الحاج عبده" جاء إلى المنطقة ضمن العشرات من أبناء القبائل الذين نزحوا من "بلاد مطلع"، خلال فترات متعاقبة، واستقروا في عدة مناطق من البلاد... بعضهم

يقولون: إنه جاء من "ريدة"، وبعضهم الآخر يقول من صنعاء، وآخرون يقولون من "حضرموت"... (ص70).

الثابت في "الأصول" الانتماء للمكان، المكان اليمني بشكله الجامع والمتسع للجميع، ولهذا تظل أوهام "الأصول" تخمينية "لا يعرف أحد حقيقتها على وجه الدقة"، فكلما ألم باليمني جائحة من جوع ومرض وحروب تكون هجرته الداخلية وتنقلاته في المكان، وطريق النجاة منها كان "الوقف للمساجد"، والتفرق بين قرى ووديان جبل التعكر، المعادل الموضوعي لأفق الجغرافية اليمنية.

"طواق العروس" مقابر صخرية قديمة، أو مذبح للآلهة السبئية.

هند بنت عتبة والملكة أروى وصفية بنت حمود حيدر وريحانة ومارتا مايرز أسيرات "لفافة" سطيح التعكر، و"طواق العروس" التي لا تفتح جدرانها إلاَّ لمن وصل إلى عين اليقين، متلاشياً في سحرية المكان.

ومن الذكور "علي بن الفضل، والفضل بن أبي البركات، والأشرف، وفورسكال، وكريم، وبيل كوهين... الخ.

التماهي مع المكان "دفنت "مارتا" مع "بيل كوهين" مدير المستشفى، في حديقة المستشفى الخلفية بـ"جبلة" حسب وصيتها، في جنازة مهيبة شارك فيها آلاف اليمنيين، رجالاً

ونساء، ومايزال بعض الأهالي حتى اليوم يقومون بزيارة ضريحها، لقراءة الفاتحة على روحها" (ص96).

شخصية "العمدة" في هذه الرواية متحركة، ترصد تحولات المكان بحنينية لما كان عليه، فهو شاهد لما كان عليه بأحداثه وناسه "كان يشعر بالحزن على أشياء كثيرة اختفت، وعادات جميلة توقفت... على بساطة الأيام السعيدة التي كان الأهالي ينعمون بها... على المرح الذي اختفى من حياتهم لتحل مكانه قتامة بليدة... على الحقول الزراعية التي هجر بعضها، وبُنيت في بعضها الآخر منازل قبيحة... على بهجة الرقص الجماعي أيام الأعياد بعدما اكتفى أبناء القرية بالصلاة في قراهم، ولم يعودوا يجتمعون في المصلى الكبير أسفل الشلال... على نقاء المروج والآكام والطرقات التي أصبحت مكسوة بكل ما خلق الله من أوساخ... على موت المواويل الزراعية التي كانت تردد صداها الجبال... على الأمطار التي شحت كثيراً... على مبنى "الولي" الذي تهدمت أجزاء من قبته البيضاء بسبب الإهمال... على نساء القرية وقد اختفت البهجة من حياتهن مثلما اختفت وجوههن وراء النقاب الذي لم تفلت من قبضته المتوحشة حتى وجوه الفتيات الصغار... على العزلة والتوحش الذي فرضه الأهالي على أنفسهم... على البلاد التي انتكست أوضاعها وتفشى فيها الفساد.... على توقف شباب القرية عن لعب كرة القدم..." (ص264).

كل من اقترب قارئاً للعلامات في حصن التعكر جذبته نحوها فلا يعود، وكل من اقترب من علامات هذه الرواية انساق لقوة جذب نحو سطورها وحكاياتها الشعبية التي تفتح أبوابها بجهد العاشق وشوق القارئ للمكان، المكان بما هو خطاب روائي سارداً سحريته لكل من يفكك دلالات العلامات والطلاسم والرموز، لكنه لا يعود بعد مغامرته القرائية كما كان قبلها، فالشعور بتحولات المكان وموت العديد من أشواقه يترك غُصة على مآلاته، وحنيناً لما كان عليه، "لكن أليس هذا هو ما يتبقى من الحياة، التي عادة ما تختزل في آخر الأمر إلى ذرات رمال تعصف بها رياح الذاكرة في اتجاهات غير محددة، لتشكل لوحة متعددة المشاهد والألوان... لوحة تظل رغم كل شيء ناقصة، وفي أحيان كثيرة غير متجانسة، مثل لوحتي التي حاولت أن أرسمها لكم عن قرانا الصغيرة التي تربض في سطح جبل التعكر، عن ناسها، وحكاياتها التي طواها النسيان؟!" (ص283).

هي غصة المكان حين يتحول إلى ذرات رمال مفككة "تعصف بها رياح" الأحداث، فتنبري الذاكرة لإنشائه من جديد.

هي علامات سطيح في حصن التعكر التي رسمتها دماء "كريم" على الجدران، ورسمه العشب الأخضر الذي نبت في المكان، الشخصيات عابرة وزائلة، والمكان هو الثابت

الذي لا يفنى ولا يزول ولكن يتغير، يستعيد خلقه من ذرات الرمال كلما عصفت به رياح الأطماع.

ما رسمته الأحداث في المدافن القديمة ورسمه العشب فوق قبر "كريم"، "نحتها بعناية بالغة الراهب السبئي سُطيح منذ زمن بعيد جداً؟!" (ص289).

رحلة في المكان وأسطورة "لفافة" سطيح السبئي/ التعكري، التي ظلت منغلقة بطلاسمها وعلاماتها، منحوتة في الصخر والمدافن وبالدماء على الجدران، تنتقل من هند التي لم يمسسها ضر حين فتحت "اللفافة" لتقرأ ما فيها فلم تفهم شيئاً، وكأن المس مرتبط بالفهم! ثم لتصل تلك "اللفافة" إلى الداعية الإسماعيلي، الذي وصفته الرواية خطأً بالداعية الفاطمي، فقد تمرد على الإمام عبيدالله المهدي حين كان في سلمية، وقبل أن يذهب إلى المغرب، ناهيك عن تأخر نشوء الدولة الفاطمية في مصر... ومن ابن الفضل إلى المعماري اليهودي فالمفضل بن أبي البركات فالملكة أروى وصولاً إلى فورسكال والطبيبة مارتا وعلي وريحانة وكريم...

رواية الأساطير والأمكنة والرسوم ما إن تنغلق على الأفهام حتى تتحول إلى خرافة غامضة، يجب التسليم لها وبها دون فك طلاسمها، فقد حاولت هند ذلك فلم تعِ شيئاً، سوى أنها وجدت طلاسم وأشكالاً فحسبتها تميمة من التمائم وحرزاً يحفظها من شرور الإنس والجان.

إنها رواية المكان والطلاسم في آن. رحلة الحياة والموت، المعرفة والسلطة.

"لفافة" سطيح السبئي/ التعكري ارتبطت بمستقبل ملك بني أمية، ويوتوبيا الفلاحين التي رفع لواءها علي بن الفضل، وكانت الملكة أروى وارثة لرموزها... بعضهم أراد الوصول فكان له ذلك، وبعضهم فتح لهم الموت أبوابه مدخلاً لما أرادوه.

هل ما كتبته سابقاً كافٍ لفهم المكان، وقراءة الأحداث التي حفرت نفسها في الصخور والمدافن والقبور وعشب الأرض وعيون المياه وتحت أنقاض المباني القديمة والعابرين كأطلال في ذاكرة هذه الأرض؟ المكان الممتد في الأفق الجامع لليمنيين في جغرافيتهم التي تعيد لملمة ذاتها كل حين، متجاوزة للآني، مكثفة لغتها باتساع جوهرة الحياة؟